قراءات ومراجعات

مراجعة لكتاب

الفكر المقاصدي في تفسير المنار*

تأليف: عبد الله أكرزام**

علي محمد أسعد***

لا شكَّ في أنَّ إبراز محاسن الشريعة، وتوحيد وجهة المجتهدين، ولمّ شمْل الأُمَّة، والكشف عن الضرورات والكليات التي تؤسِّس لبناء العلوم الإنسانية من منظور إسلامي؛ كلها أهداف مشتركة للباحثين في المقاصد، وأنَّ منطلق كثير منهم لتحقيقها هو الكشف عن هذه المقاصد من خلال دراسة كتب العلماء المهتمين بتحصيلها والتنبيه عليها، ومن هذه الدراسات كتاب "الفكر المقاصدي في تفسير المنار"؛ إذ اختار مؤلِّفه مدرسة المنار؛[1] لما فيها من زخم فكري، ووضوح من الناحية المقاصدية.

---

* أكرزام، عبد الله. **الفكر المقاصدي في تفسير المنار**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1437هـ/ 2017م.

** أستاذ التعليم العالي بكلية الشريعة بأكادير في المغرب.

*** أستاذ مشارك في كلية الشريعة بجامعة دمشق. البريد الإلكتروني: alkarem2017@hotmail.com

تم تسلُّم المراجعة بتاريخ 30/ 5/ 2018م، وقُبِلت للنشر بتاريخ 1/ 6/ 2019م.

أسعد، علي محمد (2022). **مراجعة لكتاب: الفكر المقاصدي في تفسير المنار. تأليف: عبدالله أكرزام**، مجلة "الفكر الإسلامي المعاصر"، مجلد 28، العدد 103، 251–264. DOI: 10.35632/citj.v28i103.6211

كافة الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي 2022 ©

[1] لأهمية هذه المدرسة ودورها في طرح محاولات إصلاحية تعددت الدراسات عن مؤلفاتها وروادها، والذي يهمنا في هذا المقام الدراسات ذات الصلة، والتي اتجهت إلى دراسة الموضوع ذاته، فقد سبق المؤلف بدراسات تلتقي مع دراسته بجوانب وتختلف بأخرى. منها: الفكر المقاصدي عند محمد رشيد رضا، للدكتورة منوبة برهاني، وهو في الأصل رسالة دكتوراه، قدمت بجامعة باتنة في الجزائر لنيل درجة الدكتوراه في العلوم الإسلامية، تخصص الفقه والأصول ضمن كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية عام 2006–2007م إشراف د. مسعود فلوسي (452 صفحة) طبعت في دار ابن حزم، بيروت، لبنان، عام 2010م.

فكتاب "تفسير المنار" (موضوع الدراسة) هو أول تفسير احتفى بمقاصد القرآن الكريم،[2] ومقاصد البعثة، والمقاصد الكلية؛ لذا أراد المؤلِّف أنْ يجلِّي إسهام هذه المدرسة في إحياء الفكر المقاصدي، وبيان أثره في حلِّ مشكلات الأُمَّة بتنـزيلها هذا الفكر على أرض الواقع؛ تحقيقاً لإصلاح الأفراد والجماعات والأُمَّة عن طريق التفسير، وربط مقاصد الشارع ومقاصد المكلَّف بأهداف الأُمَّة.

يقع الكتاب في (404) صفحات، وقد جعله المؤلِّف في مقدِّمة وفصل تمهيدي وثلاثة فصول، حرص فيها على بيان الاتجاه المقاصدي في "تفسير المنار"، ومحاولاً إبراز الأسس النظرية للفكر المقاصدي وقواعده، وطرائق الكشف عن المقاصد، وأنواعها، ومجالاتها.

واستهل المؤلِّف كتابه -بعد المقدِّمة- بفصل تمهيدي عرَّف فيه الفكر المقاصدي ومدرسة المنار، وحاول أنْ يوسِّع دائرة الفكر المقاصدي في "تفسير المنار"، ويمدَّه خارج الأحكام الفقهية وصولاً إلى مقاصد الشرع العامة بحسب تعبير المؤلِّف. فالفكر المقاصدي يؤطِّر الفكر البشري، ويوجِّهه بصورة كلية؛ ما يجعله أقدر من غيره على مَدِّ الجسور بين علوم الشريعة بمفهومها الضيق والعلوم الأُخرى مثل: علم النفس، والاجتماع، والاقتصاد، والتاريخ، والفلك، والاستفادة من معطياتها في معالجة المشكلات الحضارية المعاصرة، فضلاً عن أنَّ فوائده في الفقه خاصةً تظهر في اعتبار العلل، والعصمة من الخطأ، وترتيب الأولويات (أكرزام، 2017، ص15–18).

وقد بدأ المؤلِّف في الفصل الأول التعريف بكتاب "تفسير المنار"، وعَدَّه من أهم كتب التفسير في العصر الحديث، ونسبه إلى الشيخ رشيد رضا بوصف دوره وتصرُّفه فيه؛ تأليفاً، وفكراً، وفهماً (أكرزام، 2017، ص31). ثمَّ عرض اهتمامات "تفسير المنار" وأهدافه التي تستمد مشروعيتها من مقاصد القرآن الكريم، ومقاصد البعثة بحسب رأي المؤلِّف، فذكر منها خصائص الإسلام مثل: الوسطية، والاعتدال، والتوازن، والكمال في الدين، والمرونة، والعالمية، والشمولية، وتوثيق علاقة

[2] هذا من وجهة نظر المؤلف؛ إذ لا ينكر اعتناء مدرسة المنار بمقاصد القرآن، هذا من الناحية الوصفية، أما الحكم على مدى نجاحها في تحصيل المقاصد فمسألة أخرى، وهذا ما جعل المؤلف يجد صعوبة عندما تكلم عن طرائق الكشف عن المقاصد وأنواعها؛ إذ وجد نفسه مضطراً للانطلاق من التصنيفات السائدة والبحث عنها في المنار.

المسلمين بكتاب ربهم بربط النص القرآني بالواقع، وتوعية الأُمَّة بحقوقها وواجباتها وَفقاً لأحكام القرآن الكريم وتعاليمه، وتحرير الفكر من قيد التقليد، وتحقيق وحدة الأُمَّة، والتجديد في أمور الدين والدنيا، وربط الأُمَّة بالتاريخ، وإصلاح اللغة العربية، ومقاومة تحديات العصر (أكرزام، 2017، ص31–38).

ورأى المؤلِّف أنَّ من معالم منهج "تفسير المنار" الاستحضار الدائم للمقاصد القرآنية؛ ما يحقِّق هدايات القرآن الكريم بأسلوب يوافق العصر، فضلاً عن بيان سنن الله تعالى في الخلق ونظام الاجتماع البشري، والتمييز بين ما يجب على المسلمين اتِّباعه؛ عملاً، وقضاءً (أكرزام، 2017، ص42).

ومن معالم المنهج في "تفسير المنار" أيضاً الترجيح بالمصلحة والمقصد، وتحكيم القواعد العامة في دفع المفاسد وحفظ المصالح، إذا لم ينصّ على حكم مصلحة، وكذلك الترجيح بالسنن الاجتماعية (أكرزام، 2017، ص50)، والتركيز على تدبُّر القرآن الكريم وتأمُّله، لينتج فهماً سديداً وعملاً مستقيماً، وتحرّي الحق والصواب، وإعادة استقلالية الفكر والفهم (أكرزام، 2017، ص52)، ورفض الروايات الضعيفة لتخليص التفسير من الروايات التي لا تستقيم مع مقاصد القرآن الكريم وهدايته (أكرزام، 2017، ص54)، والتفويض في الأمور الغيبية (أكرزام، 2017، ص59)، والاستدلال على الأحكام الفقهية من النصوص الظاهرة والقواعد المقاصدية الإنسانية (أكرزام، 2017، ص62)، والتزام منهج اليسر ورفع الحرج (أكرزام، 2017، ص63).

وبالرغم من احتفاء المؤلِّف بالنظرية المقاصدية في "تفسير المنار"، وأنَّه يكفيه جدَّتها (أكرزام، 2017، ص79–87)، فقد حرص على بيان أبرز الانتقادات التي وُجِّهت إليه، والتي عَدَّ منها بعض الاجتهادات التي تعارض مقاصد الشريعة، وقبول نظريات في الكون والحياة لم تثبت، وتأويل المراد بالجن، وإنكار أحاديث صحيحة (أكرزام، 2017، ص75–79).

وقد خصَّص المؤلِّف الفصل الثاني للتعريف بالاتجاه المقاصدي في "تفسير المنار"، فعرض أثر "تفسير المنار" في إحياء الفكر المقاصدي وإسهامه في تنميته، مبيِّناً علامات الاهتمام المبكِّر لروّاد مدرسة المنار بمقاصد الشريعة والفكر المقاصدي، التي تمثَّلت في بيان المعاني التي أصَّلها الأصوليون

قبل رشيد رضا، مثل: العز بن عبد السلام، وابن القيِّم، والشاطبي (أكرزام، 2017، ص90). فـ"تفسير المنار" لا يخلو أيٌّ من أجزائه من لفت النظر إلى كل ما تضمَّنه القرآن الكريم من أوجه الهداية والإرشاد والاقتداء، وتتبع العلل والحكم والمقاصد؛ التزاماً بمنهج القرآن الكريم في قرن الأحكام بها، وسعياً للتخلص من معوِّقات الفهم وصوارفه (أكرزام، 2017، ص92)، فضلاً عن إحيائه الأوامر التكوينية إلى جانب الأوامر التكليفية في وعي المكلَّف برسالته في الوجود (أكرزام، 2017، ص93).

وقد عَدَّ المؤلِّف ذلك الإحياء ثورةً على المناهج التقليدية المتمسكة بالظواهر الحرفية، وتقديماً للإسلام وحضارته بالصورة المشرقة التي ظهر بها في عصوره الزاهية، بل انعكس ذلك على ضبط المصطلحات والمفاهيم حتى تنطبق مدلولاتها انطباقاً معقولاً (أكرزام، 2017، ص94). يضاف إلى ذلك أنَّ إحياء الفكر المقاصدي ظهر في شموليته، ليتناول مجالات المعرفة الإنسانية الأُخرى، وفي تناسق مقاصد الخلق ومقاصد التكليف (أكرزام، 2017، ص97)، وقد استلزم ذلك حضوراً كثيفاً للمصطلحات المقاصدية في "تفسير المنار"، أحصى المؤلِّف منها ما لا يقل عن ثلاثين مصطلحاً أو تعبيراً (أكرزام، 2017، ص99).

إنَّ تجلية الفكر المقاصدي استدعت من المؤلِّف الكشف عن الأسس النظرية في "تفسير المنار"، بما تتضمَّنه من قواعد مرجعية وأدوات استند إليها صاحب "المنار" في إثبات مقصدٍ والبرهنة عليه، مثل إعمال العقل في فهم النصوص، فعرض حضور النـزعة العقلية عند روّاد "المنار"، وتأصيلهم لأهمية العقل ودوره في العقيدة، والرد على المنكرين، ودفع التعارض بين العقل والنقل، بل إنَّ بناء نظرية المقاصد لا يستقيم إلّا بالتسليم بقدرة العقل، فإنْ كان مجال المقاصد هو النص، فإنَّ محرِّك الفكر المقاصدي هو العقل (أكرزام، 2017، ص116–119).

وإضافةً إلى أساس إعمال العقل في فهم النصوص، كشف المؤلِّف عن أُسس أُخرى، منها: النظر في الكليات الخمس، وسنن الله الكونية، وعدله تعالى في شرائعه، ومراعاة المصلحة في جلبها أو دفعها، وطلب المنافع ودفع المضار، وفهم أسرار الشريعة، واكتفاء القرآن الكريم بأوجه العظة

والاعتبار، وسنن الله في الاجتماع، وربط الأسباب بالمسبِّبات،[3] وتوجيه خطاب التكليف إلى القصود؛ أمراً، ونهياً (أكرزام، 2017، ص116–137).[4]

ثمَّ أفرد المؤلِّف مبحثاً مستقلاً في تعليل الأحكام وتقصيدها؛[5] ليحرِّر فيها موقف "المنار" من مسألة التحسين والتقبيح، لصلتها بمسألة التعليل؛ إذ رأى أنَّ صاحب "المنار" وقف موقفاً وسطاً جمع فيه بين النصوص، وأيَّد ما ذهب إليه ابن القيِّم في "شفاء العليل في مسائل القدر والحكمة والتعليل" من أنَّ صفات الله تعالى لا تَعارُض بينها (ابن القيم، 1978، ص179)؛ فالله تعالى يخلق بقدر ونظام وحكمة، وأمره لم يُشرع عبثاً، وكذلك أفعال الإنسان لا ينبغي أنْ تكون عبثية خالية من أيِّ قصد (أكرزام، 2017، ص152).

وقد أبرز المؤلِّف أهمية تعليل الأحكام في "تفسير المنار"، واقترانها بحكمتها وفائدتها، وأثر هذا التعليل في توخّي المصلحة، وفائدته للعاقل في الاستقامة (أكرزام، 2017، ص153). ثمَّ عرض اعتداد "المنار" بالمصادر التبعية؛ لبيان مدى اعتماده في الأدلة المختلف فيها على ما له علاقة بالمقاصد، فتطرَّق إلى المصلحة المرسلة، مبيِّناً أنَّ الأحكام التي لا نص فيها تناط بالمصلحة، وتُفوَّض إلى ولي الأمر بشروطها، وأنَّ رشيد رضا من القائلين بتخصيص النص بالمصلحة (أكرزام، 2017، ص160).

ومن المصادر التبعية التي يُعَدُّ الاحتجاج بها من صميم الفكر المقاصدي، والتي أخذ بها صاحب "المنار"، العُرف[6] بشرط عدم مخالفته حكم الشرع، والاستصحاب؛ فما لم ينص على تحريمه فهو حلال بمجرَّد البراءة الأصلية، وقد عَدَّ المنفعة –في مواضع كثيرة– مقياساً للحكم، انطلاقاً ممّا تتميَّز به الشريعة من مزايا اليسر ورفع الحرج (أكرزام، 2017، ص164).

---

[3] فالله عز وجل يجمع بين السبب والمسبب لحكمة وراء تلك الأسباب. وانتفاع الناس بعضهم ببعض؛ إنما يكون بمقتضى سنن الله في الأسباب والمسببات، وهداية القرآن توجب العمل، والأخذ بالأسباب وهداية الإنسان إلى السنن الحكيمة التي يجري عليها أفعاله، ومن ضمن الأسباب أسباب النـزول؛ إذ بها تعرف الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

[4] فخطاب التكليف في المنار متعلق بقصد المكلف أكثر من ارتباطه بفعله أو قوله أمراً أو نهياً.

[5] علماً أنه كان يمكن للمؤلف أن يدرجه ضمن الأسس النظرية، ولكن باعتبار أن المنحى التعليلي هو المنطلق الأساس للفكر المقاصدي وروحه، يسوّغ للمؤلف تخصصيه مبحثاً خاصاً.

[6] فمراعاة أعراف الناس مما يتوافق مع سماحة الدين.

بعد ذلك عرض المؤلِّف قواعد مرجعية ارتبطت بالمقاصد، وأثبتت حضورها في التفسير، من مثل: تغيُّر الأحكام بتغيُّر الزمان والمكان،[7] وسد الذرائع، واعتبار المآلات. فسدُّ الذرائع قاعدة لها ارتباط بمناط المكلَّف على وجه الخصوص، وهو من تقرير المصالح وإقامة الحق والعدل في التنازع بين الناس مناطاً للتشريع، وأصلاً من أصول الأحكام الاجتهادية (أكرزام، 2017، ص173).[8]

وقد بيَّن المؤلِّف طرائق الكشف عن مقاصد الشارع في "تفسير المنار"، فعلَّل بدايةً اختلافها انطلاقاً من أنَّ مقاصد الشريعة ليست على درجة واحدة من الوضوح والخفاء؛ إذ قد يعبَّر عنها بصريح العبارة، ويشار إليها إشارة ظاهرة أو خفية، وقد تستفاد ضمناً من الكلام، أو من سياقه، أو من قرائن تحفُّه؛ إمّا في موضع واحد، وإمّا في مواضع متعددة، وقد يقتصر الأمر على معرفة ظروف النص، وغير ذلك من الطرائق والمسالك؛ فالاهتمام بها هو من الأدلة الداعمة للتوجُّه المقاصدي في "تفسير المنار" (أكرزام، 2017، ص178). ثمَّ عرض المؤلِّف أمثلة من دلالة النص الصريح والظاهر على التعليل، والتعبير بالمشتق الدال على كون الوصف علَّة للحكم المترتب عليه، ووقائع التنـزيل وظروف التشريع (أكرزام، 2017، ص179–186).

وفي هذا السياق، نبَّه المؤلِّف إلى أنَّ "المنار" ليس مؤلَّفاً في الأصول حتى ننتظر منه بسطاً لقضايا القياس والتعليل بالطريقة النظرية المعروفة، وهو ما يفسِّر غياب بعض المسالك، مثل: السَّبر، والتقسيم، وأقسام المناسبة، وأنواع الإيماء المختلفة (أكرزام، 2017، ص186).

تلا ذلك عرض المؤلِّف قواعد الفكر المقاصدي في "تفسير المنار"، وقد ظهر له أهميتها من التقسيم الذي سار عليه صاحبه في تفسير أحكام الكتاب والسُّنة؛ إذ قسَّمها إلى أحكامٍ جزئية خاصة بالأعمال والوقائع، وأحكامٍ كلية عامة للتشريع، وبيَّن أهم القواعد الشرعية التي تدور عليها كثير من فصول "المنار"، مثل: تحرّي الحق والعدل المطلق، والمساواة في الحقوق والشهادات والأحكام، وتقرير المصالح ودرء المفاسد، ودرء الحدود بالشبهات، وتقدير الضرورة بقدرها، ودوران

[7] فتغيرها مظهر من مظاهر دوران الأدلة في نطاق المقاصد الشرعية.

[8] أما الحيل فيبين المؤلف أن رشيد رضا أبطلها انسجاماً مع توجهه المقاصدي واحتراماً لمقاصد الدين، ولا يرى جواز الحيلة إلا في المسائل التي لا تضيع فيها علة الحكم وحكمة الشارع.

المعاملات على اكتساب الفضائل واجتناب الرذائل، مقدِّماً أمثلة على أمهات هذه القواعد (أكرزام، 2017، ص190).

وفي الفصل الثالث الذي حمل عنوان "أنواع المقاصد والسنن"، بيَّن المؤلِّف أقسام المقاصد بحسب اعتبارات مختلفة؛ لكي يمثِّل عليها من "تفسير المنار"، مبرِّراً ذلك بصعوبة تقسيمها عن طريق التفسير؛ إذ ليس سهلاً جرده، وإحصاء أقسام محدَّدة فيه، فمنطلق التفسير يكون من المضمون المعرفي (معاني كتاب الله) دون إغفال الواقع (أكرزام، 2017، ص211).

أمّا المقاصد باعتبار مصدرها فتقسم إلى مقاصد الشارع، ومقاصد المكلَّف؛ إذ يرى "المنار" أنَّ مقاصد التشريع وإصلاحه للناس بما يظهر للعاقل أنَّه حق وخير وصلاح بذاته، فالهداية هي المقصد الأول للدين، ويُمكِن إجمالها في أمرين أصليين؛ الأول: تصفية الأرواح وتخليص العقول من شوائب الاعتقاد بالسلطة الغيبية للمخلوقات، وقدرتها على التصرف في الكائنات، لتسلم من الخضوع لَمن هم من أمثالها أو دونها. والثاني: إصلاح القلوب بحسن القصد في جميع الأعمال وإخلاص النية لله.

ومن مقاصد الشارع في "المنار": وحدة الدين في أصوله وعقائده، وإيقاف الناس عند المصلحة والمنفعة، لكيلا يضعوا الأشياء في غير مواضعها، وتعليل الأحكام وتعميمها، وبيان ما تنطوي عليه من مصالح، وتعميم الخير على جميع المسلمين بتوسيع نطاق الإنفاق عليهم هم وغيرهم، وتوثيق المعاملات، وضمان حقوق الناس والعدل بينهم، ونبذ الفرق والاختلاف، ودفع الظلم عن العباد، والتيسير على الناس، والأخذ بأسباب القوة، وتأليف القلوب، وخدمة مصالح المصلحين، وابتدار الخيرات والإسراع إليها (أكرزام، 2017، ص213–217). وفي ما يخص مقاصد المكلَّف، فينبغي أنْ تكون صحة أفعال المكلَّف في مقصده بأنْ يوافق قصده قصد الشارع وحكمته، وأنْ يحقِّق مصلحة النفس دون الإضرار بالآخرين. ومن هذه المقاصد: التفقه في الدين، وقدرة المكلَّف على نشر دعوته، وإقامة حجته وتعميم هدايته، وموافقته سنن الله في خلقه (أكرزام، 2017، ص217–222).

وأمّا المقاصد بوصف تعلُّقها بعموم التشريع وخصوصه فتقسم إلى: عامة، وخاصة، وجزئية. وقد ذكر المؤلِّف أنَّ رشيد رضا اهتم بالمقاصد العامة (يعبّر عنها أيضاً بالمقاصد العالية) اهتماماً كبيراً، حتى إنَّنا لا نكاد نجد صفحة من صفحات "المنار" إلا وقد تضمَّنت إشارةً أو تلميحاً لها، إنْ لم يكن تصريحاً، وكان رشيد رضا يخرج بها بعد مناقشة مسألة محدَّدة، أو تحليل قضية ما، أو تفسير آية معيَّنة. ومن هذه المقاصد العامة: دفع المفاسد وتقرير المصالح العامة والخاصة، وتوحيد المسلمين باسم الدين، والقصد والاعتدال، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (أكرزام، 2017، ص224–226).

ثمَّ بيَّن المؤلِّف أنَّ أقسام المقاصد بوصف مدى الحاجة إليها، أو بوصف آثارها في المجتمع، مستفيضة في "المنار" من خلال بحوثه عن المصالح التي راعاها الشرع في أحكامه؛ سواء منها الضرورية، أو الحاجية، أو التحسينية. وإنَّ المتتبِّع لمنهج الإمامين يجدهما يعطيان حفظ الضروريات من جانب الوجود الأولوية؛ فهو أَوْلى -برأيهما- من حفظها من جانب العدم. والطريف أنَّ المؤلِّف أدرج العدل ضمن الضرورات؛ إذ إنَّ رشيد رضا أبرز أهميته في الأحكام والحقوق والشهادات؛ لكي يستنتج أنَّ الإصلاح عنده يتَّسم بالشمولية والعمومية، ويدخل في إقامة الضرورات الخمس مع إعطائها مدلولاً أوسع (أكرزام، 2017، ص230–240).

وبيَّن المؤلِّف أيضاً أنَّ من أبرز معالم الفكر المقاصدي في "المنار" اهتمام صاحبه بالوسائل والأسباب بدرجة اهتمامه بالمقاصد والغايات ذاتها، وأنَّ صيغه وتعابيره عنها قد تنوَّعت، كما كشف عن اعتراض رشيد رضا على قاعدة "كل ما أفضى إلى الحرام حرام"، بأنَّ الوسائل ليست كالمقاصد في نفسها (أكرزام، 2017، ص244–248).

ثمَّ أفرد المؤلِّف مبحثاً خاصاً عن مقاصد الوحي، عرض فيه نوعين من المقاصد: مقاصد القرآن، ومقاصد البعثة، وهي مقاصد متداخلة يتضمَّن بعضها بعضاً من حيث المضمون والأمثلة. وقد بيَّن أنَّ مقاصد القرآن الكريم تضمَّنت مقاصد الدين، ومقاصد البعثة، ومقاصد الشارع، ومقاصد الأُمَّة، وغير ذلك ممّا تقدَّم في كتابه، وأنَّ رشيد رضا خصَّص فصلاً مهماً في الجزء الحادي عشر لمقاصد القرآن العامة، وعَدَّ التعبُّد به أعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الأول، وتناول هذه

المقاصد في محاور كبرى أجملها المؤلِّف -بعد أنْ فصَّلها- في أمرين؛ أولهما: بيان التصوُّر الحق لله الخالق والكون الدال على خالقه والإنسان الخليفة، وثانيهما: عمارة الأرض وسياسة الأرض في ميادينها المختلفة، بنظام الشرع وهدايته بعد الوقوف على سنن الله في المجتمعات وسننه تعالى في عالم الكون (أكرزام، 2017، ص260). وكذلك فصَّل في مقاصد بعثة الرسل، ثمَّ أتبعها بمقاصد بعثة النبي محمد ﷺ (أكرزام، 2017، ص265).

وقد عَدَّ المؤلِّف "تفسير المنار" أول مرجع موسَّع بالسنن الإلهية والكونية؛ لاحتفائه بها، ويرجع هذا الاهتمام إلى أنَّ القرآن الكريم أرشدنا إلى الاعتبار بها للإفادة منها، وهي وثيقة الصلة بالمقاصد؛ لأنَّها تجسِّد المقصد الإلهي من خلقه، ولأنَّ عدم المبالاة بهذه السنن، أو الإعراض عنها، يُعَدُّ مناقضاً لقصد الله ومراده، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء: 26]. فالواجب مراعاتها؛ أفراداً، وجماعاتٍ، وأُمماً، وعاقبة المخالِف لها هو العقاب الشديد، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: 25]. ولا يتأتّى ذلك إلا بمعرفتها أولاً، ثمَّ تدبُّرها واستيعابها للإفادة منها؛ فبالإحاطة بهذه السنن، تُعرَف عوامل الأمن والاستقرار والنهوض، وعوامل الهدم والخوف والانحطاط، علماً بأنَّ فقه الواقع يحتاج إلى فقه السّنن، ولا سيما على المستوى السياسي، مثل سُنَّة التدريج التي تخضع لها الظواهر الكونية والطبيعية والاجتماعية. ومن السنن التي نبَّه إليها القرآن الكريم كثيراً، واستوقفت صاحب "المنار": سنن الابتلاء، والتمحيص، والتمكين، والتغيير، والتداول، والنصر، والإعداد (أكرزام، 2017، ص265–271).

وفي الفصل الرابع، عرض المؤلِّف مجالات المقاصد في "المنار"، وعنى بها المستوى الأفقي بوصف مناحي حياة الإنسان المختلفة. **ففي المجال الاعتقادي**، بيَّن المؤلِّف أنَّ رشيد رضا لم يألُ جهداً في بيان أهمية فقه المقاصد في فهم قضايا العقيدة، مثل: الإيمان، وأركانه، وشُعَبه؛ ذلك أنَّ أول مقاصد الوحي هو تقرير عقيدة الألوهية وأهم مسائلها الوحدانية، وتقرير عقيدة البعث، وعقيدة الوحي والأنبياء. فالتوحيد يُعَدُّ أهم ما جاء من أجله الدين، وهو يمثِّل المقصد الأول من إنـزال

القرآن الكريم؛ إذ إنَّه يطهِّر عقل الإنسان ونفسه من الخرافات والأوهام، ويعتق إرادته من العبودية والذلة لمخلوقٍ مثله مساوٍ له، في حين أنَّ القصد من الإيمان هو تزكية صاحبه، وتطهيره من الأدناس الحسية والمعنوية، وتأهيله للسعادة الأبدية، وتحميسه للدفاع عن حمى الدين وحمى المسلمين.

بعد ذلك عرض المؤلِّف فوائد الإيمان وآثاره وحكم الإيمان بأركان العقيدة، وعَدَّ ذلك بياناً للأحكام التي تتأسَّس عليها العقيدة في جانب الوجود، ثمَّ ذكر أمثلة على ما يحفظها من جانب العدم، مثل: تحريم الشرك، وتحريم الردة، وتحريم السحر، وتحريم البدع والابتداع، والنهي عن التقليد، والنهي عن المنكر (أكرزام، 2017، ص292–304).

وفي المجال التعبُّدي، بيَّن المؤلِّف أنَّ الوقوف عند النص -كما يراه رشيد رضا- هو مقصد من مقاصد التعبُّد في العبادات، وأنَّه لا يلزم عنه عدم تتبع أسرار أحكامها ومقاصدها جملةً وتفصيلاً؛ فالأحكام العملية عامةً، وأحكام العبادات خاصةً، شُرِعت لتقوية الإيمان وإصلاح النفس. وقد فصَّل المؤلِّف في مجالات التعبُّد، وبيَّن فوائدها (أكرزام، 2017، ص305–306)، ولاحظ أنَّ رشيد رضا قد ربط بين العبادات في ما بينها، وبينها وبين مقاصدها على المستوى الخلقي والاجتماعي والاقتصادي.

وفي المجال الخُلقي والتربوي، اعتنى المؤلِّف بالمقاصد الخُلقية، وعَدَّها غاية الأحكام الشرعية من: شخصية، ومدنية، وسياسية، وحربية؛ فمَن استقراها وجد الغرض منها مراعاة الفضائل فيها من: الحق، والعدل، والوفاء بالعهود والعقود، والرحمة، والمحبة، والمواساة، والبر والإحسان، واجتناب الرذائل من: الظلم، والغدر، ونقض العهود والعقود، والكذب. وقد عَدَّ من مقاصد التشريع في التهذيب الخُلقي الموعظة الحسنة، وهي الوصية بالحق والخير، واجتناب الباطل والشر بأساليب الترغيب والترهيب التي يرق لها القلب، فينبعث على الفعل والترك. وقرَّر المؤلِّف -عن طريق الأمثلة- أنَّ "تفسير المنار" احتفى بالبُعْد التربوي، وأنَّ مجال المقاصد في الأخلاق واسع جداً، فما من فعل من أفعال الإنسان إلا واقترن بقيمة خلقية (أكرزام، 2017، ص324–331).

وفي المجال الاجتماعي، فصّل المؤلف فيه من خلال ما يشمله الإصلاح الاجتماعي في الإسلام من العلاقات الآتية: علاقات الأرحام وذوي القربى، وعلاقة الجوار، وعلاقة الصداقة، والعلاقة بعامة المسلمين، والعلاقة بغير المسلمين (أكرزام، 2017، ص332). مفصلاً في مقصد كل علاقة.

وفي المجال الاقتصادي فصّل الـمُؤلف أهم مجالاته: الإنفاق في سبيل الله، والكسب الطيب، والعمل حق وواجب، والترغيب في التجارة، وتحريم أكل المال بالباطل، وتحريم الكذب والغش، وحفظ المال من التبذير والإسراف (أكرزام، 2017، ص359).

وفي المجال السياسي بيّن المؤلف أن الإصلاح السياسي يقوم على خمس دعائم أساسية هي: الحكم بمنهج الله، وإقامة العدل، وممارسة الشورى، وتحقيق الحرية، وصلاح الحكام وعمالهم (أكرزام، 2017، ص360) ويتيح المنار لدارسه استخراج معالم لنظرية مقاصدية متكاملة في فقه السياسة الشرعية.

كذلك عدّ مجالات أخرى كالمجال الحضاري، والعادات، والأطعمة والأشربة، والحدود، والجهاد.

ويخلص المؤلف في خاتمة كتابه إلى أن منهج المنار في الإصلاح متكامل، يكشف عن عقل غائي تعليلي مقاصدي، لا يغفل العلاقة بين المسببات وأسبابها، والمعلولات وعللها، والأحكام وغاياتها، ويدرك الفرق بين الأوامر التكوينية والأوامر التكليفية؛ الأولى في نقد الذات، والثانية في تحصيل مقاصدها، كما كشف عن رؤية منهجية في تفعيل الدين بكل مكوناته في الحياة (أكرزام، 2017، ص378).

قدّم المؤلف جهداً مميزاً في بيان المنظومة المقاصدية الحاكمة في تفسير المنار، ولكن يلاحظ أنَّ المؤلف لم يحرص على ذكر كثير من مسالك الكشف عن المقاصد، ولا سيّما المقاصد العامة والعالية والخاصة التي بينها، فوجودها في التفسير يستلزم مسلكاً في الكشف عنها.

ومما يلاحظ أنَّ المؤلف:

– جعل الحفاظ على الكليات الخمس في رتبة واحدة ضرورية، مع أنَّ الحفاظ عليها قد يكون حاجياً أو تحسينياً.

– كان بالإمكان تفعيل الرؤية النقدية تجاه بعض المسائل التي لا يمكن التسليم بها مقاصدياً، مثل عدّ صاحب المنار فكّ الرقاب من المقاصد الكمالية، ومصرف ابن السبيل ما دون الكمالي (أكرزام، 2017، ص238)، فتشوّف الإسلام إلى تحرير العبيد انطلاقاً من مقاصد الحرية،[9] وتكريم الإنسان، والحفاظ على الكرامة الإنسانية، علاوة عن النصوص التي تحث على التحرير. كما إنّ مساعدة المضطر قد تكون ضرورية في حالة ابن السبيل.

– تصنيف المؤلف للمقاصد في المنار هو من التصنيفات المتداولة عند دارسي مقاصد الشريعة، مما أوقعه في التكلف أثناء البحث عنها في التفسير، وكان المؤلف مدركاً لذلك، ولكن لم يسعَ إلى تجاوزه، معللاً ذلك بصعوبة قراءة التفسير والإحاطة به، مع أن مجال الدراسة هو التفسير فقط.

– حرص المؤلف على البحث عن كل ما له علاقة بالفكر المقاصدي، لكن في تصنيفه للمقاصد لم يلحظ الاستدلال عليها من القرآن بوصف أنَّ موضوع الدراسة كتاب تفسير، فكان الدمج بينها في تصنيفها بين مقاصد القرآن ومقاصد الإسلام ومقاصد إصلاح الواقع، بل تجاوز ذلك إلى أن عدَّ من المقاصد بيان آثار العقيدة في سلوك العبد (أكرزام، 2017، ص30–305)، وكذلك في عدَّ فوائد الصلاة وفوائد الصيام (أكرزام، 2017، ص309–319)، والفوائد والآثار تختلف وتتعدد وجهات النظر فيها، فلو أنه ربطها بأدلة تدلّ عليها، لكان في الأمر سعة، فتحرير المقصد في هذا الكتاب ضروري لأمرين؛ الأول: لأنه بيان لمراد الله ﷻ، والثاني: الكتاب المدروس هو تفسير، فينبغي ربط المقصد بدليله.

– التعميم في بعض المسائل كتعميم استعمال رشيد رضا في تعبيره عن المقاصد العامة بالمقاصد العالية (أكرزام، 2017، ص224)، علماً أنه لم يذكر هذا الاستعمال إلا ثلاث مرات فقط.

[9] عدّ ابن عاشور الحرية من الكليات.

وأخيراً، إن هذا الكتاب يقدم إضافة علمية، بالتعريف بالاتجاه المقاصدي عند مدرسة المنار، تهمُّ الدارسين والباحثين؛ إذ إنَّ تفحّص هذه الدراسات جهودَ العلماء والمدارس يُعدُّ منطلقاً مهماً للتأسيس لدراسات مستقبلية نقدية لا تكتفي بالوصف، بل تطمح إلى تقديم معايير تستند إلى الدليل والبرهان، لبناء المنظومة المقاصدية في المجالات الإنسانية كلها.